« محاضرة بعنوان: عين الحقيقة للحياة السعيدة »

محمد بن سليمان المهوس /جامع الحمادي بالدمام في ١٤٤٢هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا ، وَانْفَعنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا ، وَزِدْنَا عِلْماً وَعَمَلًا ، وَأَصْلَحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّه ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ ؛ رَبَّنَا عَلَيْك تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْك أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .**أَمَّا بَعْدُ:** فَإِنَّ **مَجَالِسَ الذِّكْرِ** ؛ **وَلاَسِيَّمَا** مَا يُقَامُ مِنْهَا فِي بُيُوتِ اللهِ الَّتِي أَذِنَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تُرْفَعَ ، وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَجَالِسِ ، وَأَرْفَعِهَا شَأْناً ، وَأَعْلاَهَا مَقَاماً ؛ وَفِيهَا مِنَ الْفَوائِدِ الْعَدِيدَةِ ، وِالْعَوَائِدِ الْحَمِيدَةِ ، وَالثِّمَارِ الْمُبَارَكَةِ مَا لاَ يُعَدُّ وَلاَ يُحْصَى ، وَقَدْ رَوَى مَسْلِمٌ – فِي صَحِيحِهِ – عَنْ مُعَاوِيَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– خَرَجَ علَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: « مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جلَسْنَا نَذكُرُ اللَّهَ، ونَحْمدُهُ علَى مَاهَدَانَا لِلإِسْلامِ ، ومنَّ بِهِ عَلَيْنا. قَال: «آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟ » قالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاك ، قالَ: « أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهمةً لَكُمْ، ولِكنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُباهِي بِكُمُ الْمَلاَئكَةَ» [رواهُ مسلمٌ] .

« محاضرة بعنوان: عين الحقيقة للحياة السعيدة »

محمد بن سليمان المهوس / جامع الحمادي بالدمام في ١٤٤٢هـ

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ — رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– : «ومَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، ويتَدَارسُونَه بيْنَهُم، إِلاَّ نَزَلتْ علَيهِم السَّكِينَة، وغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَة، وَحفَّتْهُم الملائِكَةُ، وذَكَرهُمْ اللَّه فِيمنْ عِنده » [رواه مسلم]

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ : النَّاظِرُ بِعَيْنِ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي أَحْوَالِ الْحَيَاةِ الْيَوْمَ ؛ يَجِدُ أَنَّ الْحَيَاةَ أَبْدَعَتْ فِي أَسَالِيبِ الرَّفَاهِيَةِ وَالْمُتْعَةِ لِبَنِي الْبَشَرِ، حَتَّى تَصَوَّرَهَا بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ السَّعِيدَةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالأَضْوَاءِ الْبَرَّاقَةِ وَالْمَنَاصِبِ الْخَدَّاعَةِ، وَيَتَصَوَّرُهَا آخَرُونَ فِي تَكْدِيسِ الأَمْوَالِ وَالانْغِمَاسِ فِي أَوْحَالِ الشَّهَوَاتِ وَاحْتِسَاءِ سُمُومِ الْمُخَدِّرَاتِ، وَآخَرُونَ فِي تَشْيِيدِ الْقُصُورِ الْفَخْمَةِ، وَغَيْرُهُمْ بِالشَّهَادَاتِ الْعَالِيَةِ وَالتَّخَصُّصَاتِ الْفَرِيدَةِ! لَكِنَّهَا لَمْ تُصِبْ عَيْنَ الْحَقِيقَةِ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ تَأْمِينَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ ؛ مِنْ سَعَادَةِ الْقَلْبِ وَبَهْجَتِهِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَرَاحَتِهِ، وَزَوَالِ هُمُومِ النَّفْسِ وَغُمُومِهَا، وَذَهَابِ كَرْبِهَا وَأَكْدَارِهَا ؛ وَالَّذِي هُوَ الْمَطْلَبُ لِكُلِّ أَحَدٍ! أَنْ يَعِيشَ حَيَاةً سَعِيدَةً هَادِئَةً مُسْتَقِرَّةً يَتَذَوَّقُهَا فِي نَفْسِهِ، وَيَعِيشُهَا فِي بَيْتِهِ وَوَسَطَ مُجْتَمَعِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ –بِاسْتِقْرَاءِ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ– أَنَّهُ ثَمَّ وَسَائِلُ لِلْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، **مِنْ أَهَمِّهَا**: الإِيمَانُ الْمَقْرُونُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي هُوَ سِرُّ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الأَمْنِ

وَالطُّمَأْنِينَةِ، ووَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْكَرَامَةِ وَالْفَلاَحِ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فَبِتَحْقِيقِ الإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَسْعَدُ الْعَبْدُ وَيَنْعَمُ بِحَيَاةٍ طَيِّبَةٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَبِالْجَزَاءِ الْحَسَنِ فِي دَارِ الْقَرَارِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ وَاضِحٌ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ الإِيمَانَ الصَّحِيحَ، الْمُثْمِرَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ ، الْمُصْلِحَ لِلْقُلُوبِ وَالأَخْلاَقِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مَعَهُمْ أُصُولٌ وَأُسُسٌ يَتَلَقَّوْنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْبَابِ السُّرُورِ وَالاِبْتِهَاجِ، وَأَسْبَابِ الْقَلَقِ وَالْهَمِّ وَالأَحْزَانِ!

يَتَلَقَّوْنَ الْمَحَابَّ وَالْمَسَارَّ بِقَبُولٍ لَهَا، وَشُكْرٍ عَلَيْهَا ، وَاسْتِعْمَالٍ لَهَا فِيمَا يَنْفَعُ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلُوهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ أَحْدَثَ لَهُمْ مِنَ الاِبْتِهَاجِ بِهَا ، وَالطَّمَعِ فِي بَقَائِهَا وَبَرَكَتِهَا ، وَرَجَاءِ ثَوَابِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا ؛ وَيَتَلَقَّوْنَ الْمَكَارِهَ وَالْمَضَارَّ وَالْهَمَّ وَالْغَمَّ بِالْمُقَاوَمَةِ لِمَا يُمْكِنُهُمْ مُقَاوَمَتُهُ ، وَتَخْفِيفِ مَا يُمْكِنُهُمْ تَخْفِيفُهُ ، وَالصَّبْرِ الْجَمِيلِ لِمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُ بُدٌّ ؛ وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُمْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ تَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْمَكَارِهُ ، وَتَحُلُّ مَحَلَّهَا الْمَسَارُّ وَالآمَالُ الطَّيِّبَةُ ، وَالطَّمَعُ فِي فَضْلِ اللهِ وَثَوَابِهِ ؛ كَمَا عَبَّرَ النَّبِيُّ عَنْ هَذَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي قَالَ فِيهِ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا

لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ » [رواه مسلم].

وَكُلُّ هَذَا مُشَاهَدٌ بِالتَّجْرِبَةِ؛ فَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا الْحَدِيثَ وَنَزَّلْتَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ، رَأَيْتَ الْفَرْقَ الْعَظِيمَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ بِمُقْتَضَى إِيمَانِهِ، وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّ الدِّينَ يَحُثُّ غَايَةَ الْحَثِّ عَلَى الْقَنَاعَةِ بِرِزْقِ اللهِ، وَبِمَا آتَى الْعِبَادَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ الْمُتَنَوِّعِ ؛ فَالْمُؤْمِنُ إِذَا ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ نَحْوِهِ مِنَ الأَعْرَاضِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ عُرْضَةٌ لَهَا، فَإِنَّهُ يَرْضَى وَيَقْنَعُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ ، وَيَهْدَأُ بَالُهُ ؛ كَمَا تَجِدُ هَذَا الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عَمَلٌ بِمُقْتَضَى الإِيمَانِ إِذَا ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ فَقَدَ بَعْضَ الْمَطَالِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، تَجِدُهُ فِي غَايَةِ التَّعَاسَةِ وَالشَّقَاءِ ؛ وَهَكَذَا فِي الْمَخَاوِفِ: تَجِدُهُ صَحِيحَ الإِيمَانِ، ثَابِتَ الْقَلْبِ، مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ، مُتَمَكِّنًا مِنْ تَدْبِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ لِهَذَا الأَمْرِ الَّذِي دَاهَمَهُ ؛ كَمَا تَجِدُ فَاقِدَ الإِيمَانِ بِعَكْسِ هَذِهِ الْحَالِ؛ إِذَا وَقَعَتِ الْمَخَاوِفُ انْزَعَجَ لَهَا ضَمِيرُهُ، وَتَوَتَّرَتْ أَعْصَابُهُ، وَتَشَتَّتَتْ أَفْكَارُهُ، وَدَاخَلَهُ الْخَوْفُ وَالرُّعْبُ، بَلْ رُبَّمَا انْهَارَتْ قُوَاهُ وَتَوَتَّرَتْ أَعْصَابُهُ، وَذَلِكَ لِفَقْدِ الإِيمَانِ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى الصَّبْرِ، خُصُوصًا فِي الْمَحَالِّ الْحَرِجَةِ، وَالأَحْوَالِ الْمُحْزِنَةِ الْمُزْعِجَةِ.

« محاضرة بعنوان: عين الحقيقة للحياة السعيدة »

محمد بن سليمان المهوس /جامع الحمادي بالدمام في ١٤٤٢هـ

وَمِن وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ لِرَبِّ الْعَبِيدِ؛ الَّذِي هُوَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ وَأَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ ! رَتَّبَ اللهُ لِمَنْ حَقَّقَهُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ وَالأَجْرَ الْجَزِيلَ، وَالسَّعَادَةَ التَّامَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

قَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أَيْ: أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يُخْلِطُوا تَوْحِيدَهُمْ بِشِرْكٍ، ثُمَّ ذَكَرَ -عَزَّ وَجَلَّ- مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ مِنَ الْجَزَاءِ: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أَيْ: هُمُ الآمِنُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الْمُهْتَدُونَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ – رَحِمَهُ اللهُ – : وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلاَحٍ فِي الأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَكُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلاَءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِ اللهِ، وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الأَمْرَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا.

فَعَلَى حَسَبِ كَمَالِ تَوْحِيدِكَ تَكُونُ سَعَادَةُ حَيَاتِكَ.

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الاِعْتِصَامَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-بِفَهْمِ الصَّحَابَةِ الأَخْيَارِ ،

وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ الأَبْرَارِ، وَهُمَا الأَصْلاَنِ الْمُهِمَّانِ اللَّذَانِ لاَ عُدُولَ عَنْهُمَا، وَلاَ هَدْيَ إِلاَّ مِنْهُمَا ؛ وَالْعِصْمَةُ وَالنَّجَاةُ وَالسَّعَادَةُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِمَا، وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِهِمَا، قَالَ تَعَالَى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ].

وَمِنْ مَعَالِمِ التَّوْفِيقِ وَالسَّعَادَةِ لِلْمُسْلِمِ: السَّيْرُ عَلَى مَا جَاءَ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- .

وَمِنَ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ، وَالتَّزَوُّدُ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى فَرَائِضِ اللهِ، وَالإِكْثَارُ مِنَ السُّنَنِ مِنْ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللهِ لِلْعَبْدِ.

فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدَهُ أَسْعَدَهُ ؛ فَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالوِتْرُ، وَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاةُ الضُّحَى، وَوِرْدُ الْقُرْآنِ الثَّابِتُ، وَأَذْكَارُ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ وَالنَّوْمِ، وَكَثْرَةُ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ مِمَّا يُرْضِي الرَّبَّ سُبْحَانَهُ عَلَى عَبْدِهِ ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ].

وَمِنَ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: تِلاَوَةُ كِتَابِ اللهِ بِتَعَقُّلٍ وَتَدَبُّرٍ؛ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ فِي جَلاَءِ الأَحْزَانِ وَذَهَابِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ؛ فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ تُورِثُ الْعَبْدَ طُمَأْنِينَةَ الْقُلُوبِ، وَانْشِرَاحًا فِي الصُّدُورِ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وَكِتَابُ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ هِدَايَةٌ وَسَعَادَةٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلْمُكَلَّفِينَ، وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ لِلْعَالَمِينَ، فَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرَاتِ، وَحُصُولُ الْبَرَكَاتِ، وَإِصْلاَحٌ لِلأَفْرَادِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الأَمْرُ بِتِلاَوَتِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ؛ فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ» الْحَدِيثُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَمِنَ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ : الْمُبَادَرَةُ إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ ذُلٌّ وَطَرْدٌ، وَإِبْعَادٌ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ -تَعَالَى-، وَهَمٌّ وَغَمٌّ وَضِيقُ صَدْرٍ.

أَخِي الْحَبِيبُ: كَيْفَ تُرِيدُ مَخْرَجًا لَكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ وَأَنْتَ تَرْتَعُ فِي الْمَعَاصِي؟!

يَا عَجَبًا لَكَ! تَسْأَلُ اللهَ لِنَفْسِكَ حَاجَتَهَا، وَتَنْسَى جِنَايَتَهَا؟! أَلَمْ تَعْلَمْ -هَدَاكَ اللهُ تَعَالَى- أَنَّ الذُّنُوبَ بَابٌ عَظِيمٌ تَرِدُ مِنْهُ الْمَصَائِبُ عَلَى الْعَبْدِ.

فَكُلُّ مَا تُجَازَى بِهِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ، وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَتَشَتُّتِهِ وَظُلْمَتِهِ وَغَمِّهِ وَهَمِّهِ؛ عُقُوبَاتٌ عَاجِلَةٌ، وَنَارٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَجَهَنَّمُ حَاضِرَةٌ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفْتَ مِنَ الْمَعَاصِي وَجَزَاءَ مَا اكْتَسَبْتَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فَجَاهِدْ نَفْسَكَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّكَ، وَعَلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي، وَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، وَسَتَرَى -بِإِذْنِ اللهِ- مَا يَشْرَحُ صَدْرَكَ، وَيُنِيرُ قَلْبَكَ، وَتَعِيشُ حَيَاةَ السُّعَدَاءِ، وَتَمُوتُ -بِإِذْنِ اللهِ- مَوْتَ الشُّهَدَاءِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الاتِّصَافُ بِخُلُقِ الإِحْسَانِ؛ إِحْسَانٌ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ: بِأَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّ اللهَ يَرَاكَ.

وَإِحْسَانٌ فِي حُقُوقِ الْخَلْقِ بِبَذْلِ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، لأَيِّ مَخْلُوقٍ يَكُونُ، فَإِذَا طَافَ بِكَ طَائِفٌ مِنْ هَمٍّ، أَوْ أَلَمَّ بِكَ غَمٌّ، فَامْنَحْ غَيْرَكَ مَعْرُوفًا، وَأَسْدِ لَهُ جَمِيلاً؛ تَجِدِ السَّعَادَةَ وَالأُنْسَ وَالسُّرُورَ وَالرَّاحَةَ.

أَعْطِ مَحْرُومًا، انْصُرْ مَظْلُومًا، أَنْقِذْ مَكْرُوبًا، أَعِنْ مَنْكُوبًا، عُدْ مَرِيضًا، أَطْعِمْ جَائِعًا؛ تَجِدِ السُّرُورَ يَغْمُرُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ.

فَلِلإِحْسَانِ ثَمَرَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الْمُحْسِنِ، مِنْ أَهَمِّهَا: كَسْبُ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَالْمُحْسِنُ يَكُونُ فِي مَعِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلاَ يَخَافُ ضِيقًا وَلاَ هَمًّا وَلاَ بَأْسًا وَلاَ رَهَقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وَلِلْمُحْسِنِ الْبُشْرَى مِنْ رَبِّهِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ.

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الاِسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ

عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾: أَخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ وَالْعَمَلَ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَعَلَى طَاعَةِ اللهِ.

فَالِاسْتِقَامَةُ مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ وَحُسْنِ الإِسْلاَمِ، بِهَا يَنَالُ الإِنْسَانُ الْكَرَامَاتِ، وَيَصِلُ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، وَهِيَ أَعْظَمُ كَرَامَةٍ، وَمِفْتَاحُ السَّعَادَةِ، وَدَلِيلُ الْيَقِينِ وَمَرْضَاةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَمِنَ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: ذِكْرُ اللهِ -عزَّ وجلَّ-؛ فَهُوَ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ يَسِيرَةٌ، كَثِيرَةُ الأَجْرِ عَظِيمَةُ الثَّوَابِ، تَجْلِبُ لِقَلْبِ الذَّاكِرِ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ وَالأُنْسَ؛ بَلْ هُوَ جَلاَءُ الْقُلُوبِ وَصِقَالُهَا، وَدَوَاؤُهَا إِذَا غَشِيَهَا اعْتِلاَلُهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وَذِكْرُ اللهِ قُوتُ الْقُلُوبِ الَّتِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُورًا، فَلاَ حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ؛ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

وَعِبَادَةُ الذِّكْرِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالإِكْثَارِ مِنْهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾، وَثَبَتَ عَنِ ابْنِ بُسْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، فَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهُ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

وَفَضَائِلُ الذِّكْرِ كَثِيرَةٌ، مِنْ أَهَمِّهَا:

أَنَّهُ يُورِث ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ الذَّاكِرِ لَهُ؛ إِذْ قَالَ اللهُ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» [متَّفقٌ عليهِ].

أَحْيَانًا يُقَدَّرُ لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ يَذْكُرَهُ الْمَلِكُ، أَوِ الأَمِيرُ فُلاَنٌ، أَوِ الْمَسْئُولُ الْفُلاَنِيُّ فِي مَجْلِسٍ مِنَ الْمَجَالِسِ فَيَفْخَرُ، بَلْ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ بَطَرًا وَإِعْجَابًا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ! فَكَيْفَ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- إِذَا ذَكَرَكَ اللهُ فِي الْمَلأِ الأَعْلَى!

.. اللهُ أَكْبَرُ ..

لَيْسَ هُنَاكَ فَضْلٌ يُمْكِنُ أَنْ يُحَقِّقَهُ الإِنْسَانُ فِي بَابِ الْفَخْرِ كَمِثْلِ هَذَا الْفَخْرِ، حِينَمَا يَذْكُرُكَ اللهُ فِي الْمَلأِ الأَعْلَى.

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ؛ فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَيُوَسِّعُهُ حَتَّى يَكُونَ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَالْجَهْلُ يُورِثُهُ الضِّيقَ وَالْحَصْرَ وَالْحَبْسَ، فَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتَّسَعَ، وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلْمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ؛ فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلاَقًا، وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَرِثُونَ عَنْ أَسْلاَفِهِمُ الدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ؛ فَيَنْبَسِطُونَ وَيَتَوَسَّعُونَ مِنَ الدُّنْيَا وَيَسْعَدُونَ فِيهَا، فَطَالِبُ الْعِلْمِ يَرِثُ أَفْضَلَ الْخَلْقِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَيُسْعِدُ قَلْبَهُ فِي الدُّنْيَا سَعَادَةً لاَ مَثِيلَ لَهَا، وَيَتَوَسَّعُ بِسَبَبِ الْعِلْمِ فِي الْجِنَانِ وَيَتَرَقَّى، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ عَنْ مِيرَاثِهِ وَمِيرَاثِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ؛ فَعَنْ أَبِي

الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»

[رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني].

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: كَثْرَةُ الدُّعَاءِ؛ فَيَا مَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ، وَتَكَدَّرَ أَمْرُهُ، ارْفَعْ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ إِلَى مَوْلَاكَ، وَبُثَّ إِلَيْهِ حُزْنَكَ وَشَكْوَاكَ، وَاذْرِفِ الدَّمْعَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أُمِّكَ وَأَبِيكَ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يُرْشِدُونْ﴾ [البقرة: ١٨٦] وَيَقُولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فَإِذَا ضَاقَتْ بِكَ السُّبُلُ وَتَكَالَبَتْ عَلَيْكَ الْهُمُومُ وَالأَحْزَانُ! الْجَأْ إِلَى مَنْ لَدَيْهِ الْمَخْرَجُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ، وَالْفَرَجُ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ، وَارْفَعْ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ إِلَى الرَّحِيمِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ.

وَقُلْ كَمَا عَلَّمَنَا رَسُولُنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتُكَ أَرْجُو فَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ من حديث أبي بكرة بن الحارث].

وَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ غَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ» [رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الْقَنَاعَةُ، وَهِيَ: الرِّضَا بِمَا أَعْطَاكَ اللهُ، وَكَتَبَهُ وَقَسَمَهُ، وَهِيَ: اسْتِغْنَاؤُكَ بِالْمَوْجُودِ،

وَتَرْكُكَ لِلتَّشَوُّفِ إِلَى الْمَفْقُودِ، وَامْتِلاَءُ الْقَلْبِ بِالرِّضَا، وَالْبُعْدُ عَنِ التَّسَخُّطِ وَالشَّكْوَى.

الْقَنَاعَةُ – أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- الَّتِي هِيَ شِفَاءٌ وَدَوَاءٌ؛ شِفَاءٌ مِنْ دَاءِ الْجَشَعِ وَالطَّمَعِ، وَشِفَاءٌ مِنَ الْهُمُومِ وَالأَحْزَانِ، وَشِفَاءٌ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ وَالْحَسَدِ، وَشِفَاءٌ مِنْ نَهْبِ الأَمْوَالِ وَالاِعْتِدَاءِ عَلَى الْمُمْتَلَكَاتِ.

فَمَنْ عُدِمَ الْقَنَاعَةَ ازْدَادَ تَسَخُّطُهُ وَقَلَقُهُ، وَحُرِمَ مِنَ الرِّضَا بِمَا رَزَقَهُ اللهُ وَآتَاهُ. وَحِينَئِذٍ لاَ يُرْضِيهِ طَعَامٌ يُشْبِعُهُ، وَلاَ لِبَاسٌ يُوَارِيهِ، وَلاَ مَرْكَبٌ يَحْمِلُهُ، وَلاَ مَسْكَنٌ يُؤْوِيهِ؛ «وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ». يَبْحَثُ عَنِ الْمَالِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، يَخْلِطُ بَيْنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ مَالُهُ كُلُّهُ مِنَ الْحَرَامِ؛ لأَنَّهُ لاَ يَقْتَنِعُ بِمَا هُوَ حَلاَلٌ.

وَلَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الْقَنَاعَةِ، وَبَيَّنَ أَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَالْفَلاَحِ، فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ» (أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ -وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» (أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ).

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: «مِنْ أَكْثَرِ مَوَاهِبِ اللهِ لِعِبَادِهِ وَأَعْظَمِهَا خَطَرًا: الْقَنَاعَةُ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَرْوَحَ لِلْبَدَنِ مِنَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالثِّقَةِ بِالْقَسْمِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَنَاعَةِ خَصْلَةٌ تُحْمَدُ إِلاَّ الرَّاحَةَ وَعَدَمَ الدُّخُولِ فِي مَوَاضِعِ السُّوءِ لِطَلَبِ الْفَضْلِ، لَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَلاَّ يُفَارِقَ الْقَنَاعَةَ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الأَحْوَالِ».

هِيَ الْقَنَاعَةُ لاَ تَرْضَى بِهَا بَدَلاً *** فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ

انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا *** هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الصَّبْرُ وَهُوَ عِبَادَةُ الضَّرَّاءِ، وَعُدَّةُ الْمُسْلِمِ حِينَ نُزُولِ الْبَلاَءِ، وَزَادُ الْمُؤْمِنِ حِينَ وُقُوعِ الاِبْتِلاَءِ، يَجِدُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ حَلاَوَةً وَطَلاَوَةً فِي سَرَّائِهِ وَضَرَّائِهِ؛ كَيْفَ وَقَدْ عَلَّقَ اللهُ عَلَى الصَّبْرِ حُصُولَ الْفَلاَحِ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وَالصَّبْرُ يُورِثُ الْهِدَايَةَ فِي الْقَلْبِ، وَالاِنْشِرَاحَ فِي الصَّدْرِ، وَالسَّكِينَةَ فِي النَّفْسِ، وَمَحَبَّةَ اللهِ وَمَحَبَّةَ النَّاسِ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

وَمِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: كَثْرَةُ الاِسْتِغْفَارِ؛ فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْكَ يَا عَبْدَ اللهِ الأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ وَالْكُرُوبُ، وَتَعَاظَمَتْ عَلَيْكَ الْمِحَنُ وَالْبَلاَيَا وَالْخُطُوبُ؛ كُلَّمَا كَانَتْ حَاجَتُكَ إِلَى الاِسْتِغْفَارِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ؛ فَمَا نَزَلَ بَلاَءٌ إِلاَّ بِذَنْبٍ، وَلاَ رُفِعَ إِلاَّ بِتَوْبَةٍ وَاسْتِغْفَارٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا * مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [سورة نوح: ١٠-١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ» [رواه أبو داود، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» رقم (٢٢٣٤)].

مِنْ وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ: الإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ، فَلاَ شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: إِنْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَإِنِّي إِذًا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. وَلِلْمَحَبَّةِ

تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَطِيبِ النَّفْسِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، لَا يَعْرِفُهُ إِلاَّ مَنْ لَهُ حِسٌّ بِهِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى وَأَشَدَّ كَانَ الصَّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ، وَلاَ يَضِيقُ إِلاَّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَطَّالِينَ الْفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ، فَرُؤْيَتُهُمْ قَذَى عَيْنِهِ، وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمَّى رُوحِهِ. وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ الإِعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَمَحَبَّةُ سِوَاهُ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ، وَسُجِنَ قَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْهُ، وَلَا أَكْسَفُ بَالاً، وَلاَ أَنْكَدُ عَيْشًا، وَلاَ أَتْعَبُ قَلْبًا، فَهُمَا مَحَبَّتَانِ، مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ الْقَلْبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا، بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَيْنِهَا، وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَانْجِذَابُ قُوَى الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْمَحَبَّةُ كُلُّهَا إِلَيْهِ. وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجْنُ الْقَلْبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَهِيَ سَبَبُ الأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ، وَهِيَ مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ. وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ، فَلِلذِّكْرِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ.

أَخِيرًا .. أَخِي الْحَبِيبُ..

أَنْتَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِأَمْسِكَ وَلاَ غَدِكَ؛ فَكُلَّمَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ يَوْمِكَ، فَاسْتَغِلَّ لَحَظَاتِكَ، فَلاَ تُضِعْ يَوْمَكَ بِهَاجِسِ الْمَاضِي وَغَمِّهِ، وَلاَ تُبَعْثِرْ لَحْظَتَكَ بِشَبَحِ الْمُسْتَقْبَلِ وَرُعْبِهِ؛ لِلْيَوْمِ فَقَطْ أَنْتَ سَتَعِيشُ، فَاصْرِفْ فِيهِ هِمَّتَكَ وَنَشَاطَكَ وَقُوَّتَكَ وَتَرْكِيزَكَ وَنَصَبَكَ وَتَعَبَكَ وَجَدَّكَ وَكَدْحَكَ، وَخُذْ بِنَصِيحَةِ نَبِيِّكَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حَيْثُ يَقُولُ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

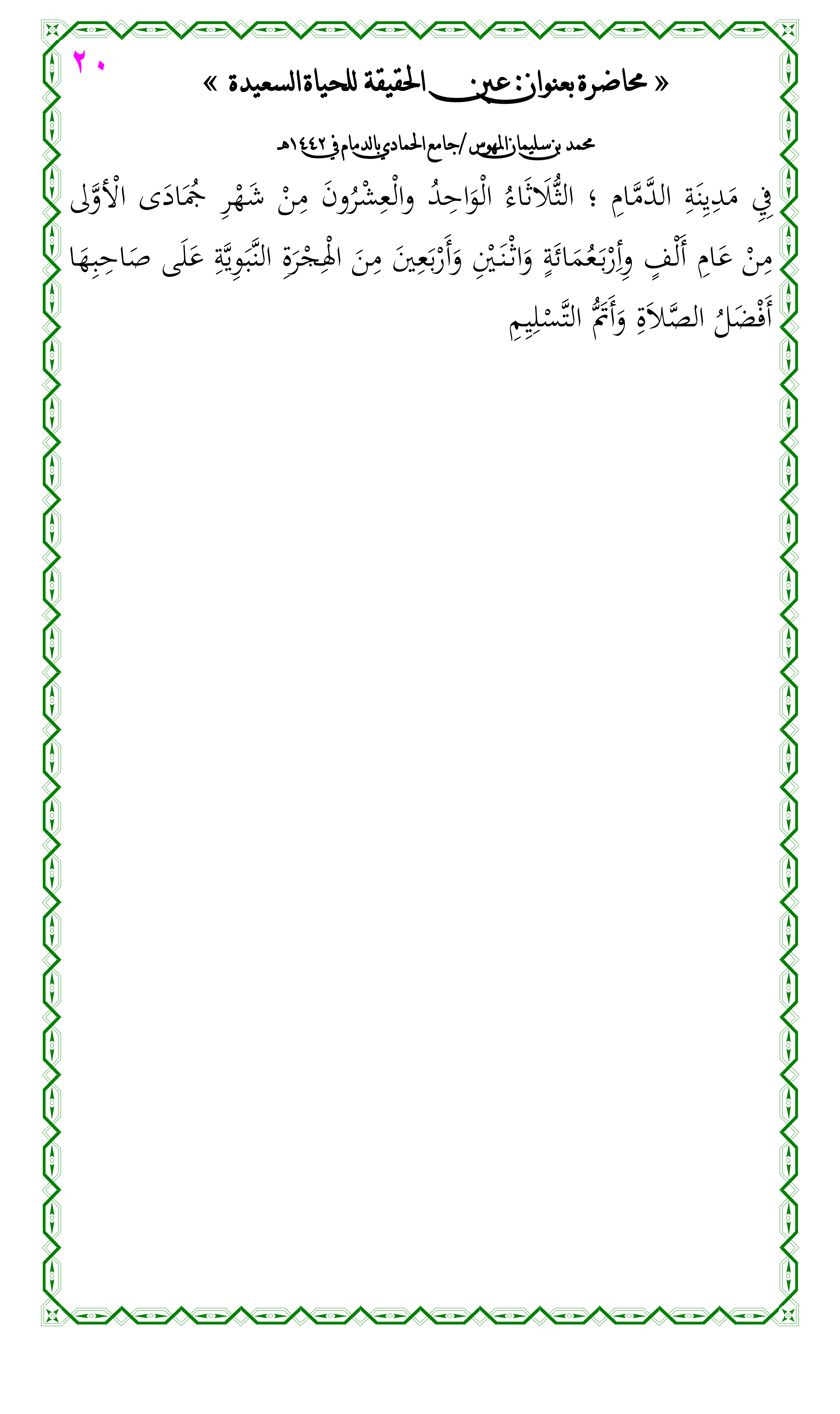
وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» [رواه البخاري].

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا سَعَادَةَ الْقَلْبِ، وَهُدُوءَ النَّفْسِ، وَسَكِينَةَ الرُّوحِ، وَانْشِرَاحَ الصَّدْرِ، اللَّهُمَّ يَسِّرْ أُمُورَنَا، وَفَرِّجْ هُمُومَنَا، وَاسْتُرْ عُيُوبَنَا، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ٨٠ : ٨٢]

جَمَعَهُ : الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّهِ :

مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُهَوَّسِ



« محاضرة بعنوان: عين الحقيقة للحياة السعيدة »

محمد بن سليمان المهوس /جامع الحمادي بالدمام في ١٤٤٢هـ

فِي مَدِينَةِ الدَّمَّامِ ؛ الثُّلَاثَاءُ الْوَاحِدُ والْعِشْرُونَ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الْأُوَّلى مِنْ عَامِ أَلْفٍ وأَرْبَعُمَائَةٍ وَاثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ